﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦﴾ [الذاريات: 1 - 6]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

القرآن الكريم متحقِّقٌ ما أخبرَ عنه، واقعٌ ما وعدَ به

لمّا تقدَّم في أواخر سورة (ق) ذِكرُ اليوم الآخر في قوله سُبحانَهُ: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٤١﴾، وبيانُ الحَشْر بأدلَّته في قوله: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ۝٤٤﴾، وبيانُ أنَّه ﷺ لا يُجْبِرُهُم، ولا يُلْجِئُهم إلى الإيمان في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾، إشارة إلى إصرارهم على الكفر بعد إقامةِ البرهان وتلاوة القرآن عليهم، فلم يبقَ إلّا اليمينُ، فأقسَم هنا في أوَّل الذّاريات بصنوفٍ من عظائم مخلوقاته - الدّالَّة على عظيم قُدْرَته - على تحقُّق ذلك البعثِ والنَّشر والحساب، وحصول المُجازاةِ، ووُقوع المداينة فيه لكلِّ مكذِّب[1].

ثمَّ إنَّ سورة (ق) لمّا خُتِمت آيتُها الأخيرة بجملة: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾؛ أقسم في سورة الذّاريات بصنوف من عظائم مخلوقاته بصدق القرآن في إخباره، وأنَّ ما جاء به من وعيد متحقَّقٍ واقع، قال البقاعيُّ: "لمّا ختَمَ سبحانه (ق) بالتَّذكير بالوعيد؛ افْتَتَحَ هذه بالقسَم البالغ على صِدْقِه، فقال مناسبًا بين القَسَم والمُقْسَم عليه: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾: (ذرو) أصلٌ يدُلُّ على تَساقُطِ الشَّيءِ مُتفرِّقًا،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 159.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 7/ 270.

يُقالُ: ذَرا نابُ الجَمَلِ؛ إذا انكسَرَ حَدُّهُ[1]، ومن الباب: ذَرَتِ الرّيحُ التُّرابَ وغيرَه ذَرْوًا وأذْرَته: أطارَته، وأذهبَتهُ، وقيلَ: حَمَلَته، فأثارَته، وأذْرَته؛ إذا ذَرَتِ التُّرابَ، وقَد ذَرا هوَ نفسُه[2]، والذَّرا والذَّراوَةُ: ما ذَرا من الشَّيء، والذُّراوَة: ما سقط من الطَّعام عند التَّذَرّي، وخَصَّ اللَّحيانيُّ به الحنطة، قال حميد ابن ثور الهلالي:

وَعاد خُبّازٌ يُسَقّيه النَّدَى *** ذُراوَةً تَنْسِجُهُ الهوجُ الدُّرُجْ[3]

والمُرادُ بالذّارياتِ هنا: الرّياح الَّتي تذرو الشَّيءَ، أي: تَسوقُه، وتحرِّكه، وتنقلُه مِن مكانه[4].

2) ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ﴾: (حمل) أصلٌ يدُلُّ على إقلالِ الشَّيءِ، يُقالُ: حَمَلْتُ الشَّيءَ أحْمِلُهُ حَملًا[5]، والحَملُ: ما كانَ في بَطْنٍ أو على رأس شجرةٍ، وجمعُه أحْمالٌ، والحِملُ ما كانَ على ظهْرٍ أو على رأسٍ[6]، وخُصَّ الضَّأْن الصَّغير بالحَمَلِ بذلك؛ لكونه محمولًا لعجزه، أو لِقُربه من حَمل أُمِّه إيّاه، وجمعه أحمال وحُملان، وبها شُبِّه السَّحاب، فقال تعالى: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾، والحَميل: السَّحابُ الكثير الماء؛ لكونه حاملًا للماء، والحَميل أيضًا: ما يحمله السَّيلُ[7]، والحاملات في الآية: السَّحابُ الَّذي يَحملُ ثِقلًا مِنَ الماء[8].

3) ﴿وِقۡرٗا﴾: (وقر) أصلٌ يدلُّ على ثِقَلٍ في الشَّيءِ، يُقالُ: وقَرَ الشَّيءُ يَقِرُ وقْرًا، أي: ثَقُلَ[9]، ومنه الوَقْر، وهو الثِّقَلُ في الأُذُن، والوِقْرُ: الثِّقل يُحمَل على رأسٍ أو على ظهرٍ، قال اللّه تعالى: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾، والمرادُ: السَّحابُ تَحمل الماءَ الَّذي أوقَرَها[10]، ويُقالُ: هذه امرأةٌ موقَرَةٌ، وموقِرَةٌ؛ إذا حملت حملًا ثقيلًا، وقد وقَرَ الرَّجُلُ من الوَقار، فهو وقورٌ[11]، والوِقْرُ في الآية مراد به: الماءُ، وقد شُبِّه بالشَّيءِ الثَّقيلِ؛ لأنَّ من شأنِ الشَّيءِ الثَّقيلِ أن يَحمله الحامِلُ[12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرو).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ذرا).
(3) البيت من الرجز، وهو في ديوانه، ص: 63، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (ذرو).
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 9.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمل).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حمل).
(7) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 2/ 502.
(8) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 425، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 171.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقر).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (وقر).
(11) ابن السكيت، إصلاح المنطق، ص: 12.
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 338.

4) ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ﴾: (جري) أصلٌ يدلُّ على انسياح الشَّيء، يُقالُ: جَرى الماءُ يجري جَرْيَةً وجَرْيًا وجَرَيانًا[1]، فالجَرْيُ حقيقَتُه: "السَّير السَّريع، وهو لذواتِ الأرْجُلِ، وأُطلِقَ مَجازًا على تنقُّلِ الجِسم مِن مكانٍ إلى مكانٍ تنقُّلًا سريعًا بالنِّسبةِ لتنقُّلِ أمثالِ ذلك الجِسْم"[2]، ونقل الأزهريُّ عن اللَّيْث أنَّ "الخَيل تَجْري، والرّياح تجْري، والشَّمس تجْري جَرْيًا، إلّا الماء، فإنَّهُ يَجْري جِرْيَةً، والجِراءُ: للخيل خاصَّة"[3]، والمراد بـ ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ في الآية: الرّياحُ تَجْري بالسَّحابِ بَعْدَ تَراكُمه، وقد صارَ ثقيلًا بماء المَطرِ[4]، ويجوزُ أن يُحْمَلَ على كلِّ ما يَجْري، فيدخُلَ فيه الكواكبُ السَّيّاراتُ وغيرُها.

5) ﴿يُسۡرٗا﴾: (يسر) أصلٌ يَدُلُّ على انفِتاحِ شَيءٍ وخفَّتِه، فاليُسْرُ ضدُّ العُسْرِ، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185]، وقال سُبحانَه: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧﴾ [الطلاق: 7]، وقال ﷺ: ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾، وتَيَسَّرَ كذا، واستَيسَرَ، أي: تسهَّل، قال سُبحانَهُ: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ [البقرة: 196]، وقال: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ [المزمل: 20]، أي: تسهَّل، وتهيَّأ، واليُسْرَى: السَّهل، وقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧﴾ [الليل: 7][5]، أي: فسَنُهَيِّئُه للخَلَّة الَّتي تُؤَدّي إلى يُسْرٍ وراحَةٍ، كدخولِ الجنَّة[6]، ومعنى اليُسْرِ هنا: اللّينُ والهَوْنُ، أي: الجارياتُ جَرْيًا ليِّنًا هيِّنًا شأْنَ السَّيْرِ بالثِّقَلِ، كما قال الأعشى:

كأنَّ مِشْيَتَها مِنْ بَيْتِ جارَتِها *** مَوْرُ السَّحابةِ لا رَيثٌ ولا عَجَلُ[7]

6) ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ﴾: (قسم) أصلٌ يدُلُّ على تجزئةِ شَيءٍ[8]، مَصْدَرُ قَسَمَهُ يَقْسِمُهُ قَسْمًا، وقَسَّمَهُ تَقْسيمًا: جَزَّأَهُ، فانْقَسَمَ[9]، القِسْم والمِقْسَم والقَسيم: نَصيبُ الإنسان مِنَ الشَّيءِ، يُقالُ: قَسَمتُ الشَّيءَ بَينَ الشُّرَكاءِ، وأعطيتُ كُلَّ شَريكٍ مِقْسَمه وقِسْمه وقَسيمه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/ 448.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 19.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (جري).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 338.
(5) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (يسر).
(6) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (يسر).
(7) البيت يروى: مور السحابة، ومر السحابة، وهو من البسيط، ينظر: ديوان الأعشى، ص: 105، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 338.
(8) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (يسر).
(9) الزبيدي، تاج العروس: (قسم).

والقَسْمُ: الغَيْثُ والمَطَرُ، واسقِني قَسْمًا، أي: ماءً[1]، والمُقَسِّمات: الملائكةُ الَّتي تُقَسِّمُ أمرَ اللّه في خَلْقِه[2]، أو هي الرّياحُ الَّتي تنتهي بالسَّحابِ إلى المَوضعِ، الَّذي يَبلُغُ عندهُ نُزولُ ما في السَّحابِ من الماءِ، أو هي السُّحُبُ الَّتي تُنزِلُ ما فيها مِنَ المَطَرِ على مَواضِعَ مُختلِفةٍ[3]، وهو الأوفق للسّياق.

7) ﴿أَمۡرًا﴾: (أمر) أصلٌ ضِدُّ النَّهي[4]، والأمرُ: الشَّأنُ، وجمعه أُمور، ومصدر أمرته؛ إذا كلَّفته أن يفعل شيئًا، وهو لفظ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها، والأمرُ أيضًا: التَّقدُّم بالشَّيء، سواءٌ أكان ذلك بقولهم: افعل، وليَفعَلْ، أم كان ذلك بلفظِ خبرٍ، نحو: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: 228]، أم كان بإشارة أم غير ذلك[5]، ومِن هذا البابِ: الإمرَةُ والإمارَةُ، وصاحِبُها: أميرٌ ومُؤَمَّرٌ[6]، والأمر في قول اللّه تعالى: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ مفعولٌ به للوصف الَّذي هو المُقسِّمات، وهو مُفرد أريد به الجمع، أي: المقسِّمات لِما تحمِلُهُ بِأمر اللّه تعالى وإرادته[7].

8) ﴿لَصَادِقٞ﴾: (صدق) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قَولًا كان أو غيره، ومنه: الصِّدْقُ، سُمّيَ به؛ لِقوَّتِه في نَفْسِه، ولأنَّ الكَذِبَ لا قوَّة له[8]، وحقيقته: اعتِبارُ الكلامِ صحيحًا لا كَذِبَ فيه، فهو نَقيضُه[9]، يُقال: صَدَّقْتُ فلانًا، أي: نسبته إلى الصِّدق، وأصدَقْتُهُ: وجدته صادقًا[10]، والصّادق والصَّدوق واحِد، وهو الَّذي لا يكذب، يُقال: هذا مِصْداق الأمر، أي: حَقيقَته[11]، وصدَقَت النُّبوءةُ: تحقَّقت، وثبتَت، والصِّدق في الوعد والوعيد: إنفاذُهُ[12]، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الفتح: 27]، والإخبار في قول اللّه تعالى:

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة: (قسم).
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 426، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 171، والزبيدي، تاج العروس: (قسم).
(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (يسر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(5) الراغب، المفردات: (أمر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(7) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 10.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (صدق).
(10) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صدق).
(11) ابن دريد، جمهرة اللغة: (صدق).
(12) ابن القطاع، كتاب الأفعال: 2/ 236.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ عن وعيدهم بأنَّه ﴿لَصَادِقٌ﴾، معناهُ: محقَّق منفَّذ غيرُ مخلوفٍ، والمُرادُ: إثباتُ البَعْثِ الَّذي أنكروه[1].

9) ﴿ٱلدِّينَ﴾: (دين) أصلٌ تدلُّ تصريفاتُه على جِنْسٍ مِنَ الانقيادِ والذُّلِّ، فالدّينُ: الطّاعَةُ، يُقالُ: دانَ له يَدينُ دينًا؛ إذا أصحَبَ، وانقادَ، وطاعَ، وقَوْمٌ دينٌ، أي: مُطيعونَ مُنقادونَ[2]، والدّينُ يُقالُ للطّاعة والجزاء والمُكافأة، ودِنْتُه بفعلِه دَيْنًا: جَزَيته[3]، والدَّيّانُ: المُجازي، ويُقالُ: كما تَدينُ تُدان، أي: كَما تَجْزي تُجْزَى، وقال ﷻ: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الواقِعة: 86]، أي: غير مجْزيّينَ، واستُعير للشَّريعة، والدّينُ كالملَّة، لكنَّه يُقال اعتبارًا بالطّاعة والانقياد للشَّريعة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19][4]، والدّينُ في قولِ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ مُرادٌ به الجَزاء، أي: إنَّ الجَزاء بالأعمالِ والقِصاصَ لحاصِلٌ، والمداينةَ محقَّقةٌ.

10) ﴿لَوَٰقِعٌ﴾: (وقع) أصلٌ يدلُّ على سُقوطِ شيءٍ[5]، ويُقالُ: سمعت وقْع المطر، وهو شِدَّة ضَرْبه الأرضَ؛ إذا وبَل[6]، والوُقوع: مصدر وقَعَ الشَّيءُ يَقَعُ وُقوعًا، أي: هويًّا، والوَقْعُ: وقْعةُ الضَّرْبِ بالشَّيءِ، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾، أي: واجبٌ على الكفّار، ومنه قوله تعالى: ﴿*وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: 82]، أي: وجب، وثَبَتَت الحُجَّة عليهم[7]، فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾، أي: حاصِلٌ حقيقةً[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبين هذه الآياتِ قُدْرَةَ الله وعَظَمَتَه، وذلك بأقسامٍ عظيمةٍ، فهو سُبحانَهُ يُقْسِمُ بالرّياح الَّتي تُثيرُ التُّراب، وتَذروهُ ذرْوًا، وبالسُّحُب الَّتي تحمل ثِقْلًا عظيمًا مِنَ الماءِ، وبالرّياحِ تَجْري بالسَّحابِ بَعْدَ تَراكُمه، وقد صارَ ثقيلًا بماء المَطرِ أو بالسُّفُنِ، الَّتي تجري في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 340.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دين).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (دين).
(4) الراغب، المفردات: (دين).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقع).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وقع).
(7) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (بصيرة في وقع).
(8) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (صدق).

البحرِ بسُهولَةٍ ويُسر، وتحملُ النّاس، وتَنْقُل المحاصيلَ بين الأقطار، وأقسَمَ بالمَلائكةِ الَّذين يُقَسِّمون أمر اللّه تَعالى بينَ خلقهِ حسب ما يشاءُ، أقسَمَ بذلكَ كُلّه على أنَّ ما يوعَدُ بِه النّاسُ مِن البعثِ والنُّشور والحِسابِ لحقٌّ صادِقٌ لا مرية فيه، وإنَّ الدّين وهوَ الحسابُ والجزاء على الأعمالِ – لا محالة – واقعٌ لا بُدَّ منهُ[1].

مِـن رحـمـة الله تعالى أن يلفت عبادَه إلى صِدق الوعدِ بالمجازاة

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ واو القسَم[2] المؤذنِ بأهمّيَّة المقسَم به وخطورة المقسَم عليه معًا؛ وممّا يزيد ذاك وذلك أهمّيَّةً وخطورةً أنَّ المُقسِم هو اللّه العزيز القهّار ﷻ، فاجتمَعَت أسبابُ التَّنبيهِ إلى جلال المَقام.

قَسَمُ الله تعالى تنبيهٌ إلى خطورة الأمـر المـقـسَـم عليهِ

غرضُ القسَم في قوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾:

في قسَم اللّه تعالى بالرّياحِ وما ذُكر مَعها بيانٌ "لِكثرة ما فيها من المَنافع، والمشاهد الواقعة بين النّاس؛ بحيث لا ينكرُها أحدٌ، ولِما تتضمَّنه من الدَّلالة على وحدانيَّة اللّه تعالى وتَناهي قُدرته، وبدائع صَنْعَتِه"[3].

قَـسَـمُ الـلـه تعالى بمخلوق تنبيهٌ لِما فيه من منافعَ، ودليلٌ على وحدانيَّته وقُـدرتـه وبديع صَنْعَتِه

وهذا القسَم "في المعنى قسَمٌ بقدرته وحكمته، ومتضمِّنٌ تشريفَ تلك المخلوقات بما في أحوالها مِن نِعَم، ودلالة على الهُدى والصَّلاح، وفي ضِمنِ ذلك تذكيرٌ بنعمة اللّه فيما أوجَد فيها"[4]، وفيهِ "دلالةٌ على الاعتبار فيها حتّى يصير النّاظر فيها إلى توحيدِ اللّه تعالى"[5]، فـ "القادر على تأليفِ السَّحاب المتفرِّق بالرّياح الذّارية والمرسَلة؛

(1) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 520.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 159.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1088.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 336.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 171.

قادرٌ على تأليف الأجزاء المتفرِّقة بطريقٍ من الطُّرق الَّتي يختارها بمشيئتهِ تعالى"[1].

معنى (أل) في ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾، ودلالةُ جَمعِها:

في الرّياح منافِعُ عظيمةٌ للعبادِ

(أل) في ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ لتعريف العهد؛ إذْ هذا الوصفُ أخصُّ بالرّياح، وفي تعريف وصفها (الذاريات) دلالة على كمالها وقوَّتها، وأنَّها الذّاريات الكاملة في خصائصِها، العظيمَةُ في منافِعها.

ومجرَّد قسَم الله تعالى بها لافتٌ وداعٍ إلى النَّظر في آثارها في حياة العباد، ناطقٌ بعظمة منافعها، الَّتي أودعها الله تعالى فيها، وساقها بها، ففي "الرّياح معتَبَرٌ من شدَّتها حينًا ولينِها حينًا، وكونِها مرَّةً رحمةً ومرَّة عذابًا"[2]، فقد أهلك الله تعالى بها أقوامًا، وبها استأصلهم، وبها تُلَقَّح الأشجارُ المثمِرَةُ وغيرُها، وبها يُساق السَّحاب في الآفاق للإمطار، وبها تجري السُّفن في البحار.

وبها سببُ حياة الحيوانات بالتَّنفُّس، وفيها آياتٌ، منها أنَّ الرّيح جِسم لَطيف لا يُرى، ويُدرَك ليُعلَم أنَّ الرُّؤية لا توجب الإحاطة والإدراك، وغيرُ ذلك من جهة الآيات[3].

لطيفةُ إيثار التَّعبير بـ(الذاريات) دون (الرّياح):

التَّنبيهُ إلى أبرَزِ منافِعِ الرّياح

في قسَم الله تعالى بالوصف (الذّاريات) دون الموصوف (الرّياح) تنبيهٌ إلى أبرز ما فيها من جوانب الخير العميم العظيم؛ إذ تُنبِّه مادَّتها اللُّغويَّة (ذرو) إلى أجلِّ منافعها، وهو ذَرْو اللُّقاحات، ونقلها مِن ذكور النَّباتات والأشجار إلى إناثها، فتَغْزُر حبوبُها، ويَعظُم نِتاجها، ويَكمل نموُّ ثمارِها.

وفي مادَّة (ذرو) إشارةٌ إلى ما تقوم به الرّياحُ من ذرْوِ المُضِرّات

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 161.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 171.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 373.

وكنْسِها بعيدًا عن مجتمعِ النّاس، وتطهير وجه الأرض وتعقيمه من التَّلوُّثات، إلى غير ذلك من منافعَ لا يعلمها إلّا الله تعالى.

وفي اصطفاء وصفِ (الذّاريات) والاكتفاء بهِ عن الموصوف (الرّياح) لَفْتٌ إلى تلك الصِّفة بالذّات من بين صفات (الرّياح)، فالرّياح ذارياتُ ما يُذْرَى، وسائقاتُ السُّفن، وحاملاتُ السُّحُب، وما إلى ذلك.

ففي القَسَم بصفة (الذّاريات) على وجهِ الخصوصِ إيذانٌ بأنَّ مهمَّة الذَّرْو فيها من أبلغ منافِعِها، ومن أخصِّ مهامِّها الَّتي خلقها الله تعالى، وأجراها من أجلِها.

نكتةُ صوغ (الذّاريات) اسمَ فاعل:

مـهـامُّ الـرّيـاح لا تـكـونُ إلّا بانتِقالِها

في صَوْغِ لفظِ (الذّاريات) اسمَ فاعل دلالةٌ على أنَّها دائمةُ الذَّرْو، متَّصلة النَّفْع، متواصلة الحركةِ والانتقال من مكانٍ في الأرض إلى آخرَ، فتختلف الأماكن طقسًا ومناخًا بحسب فصول العام، وبحسب حاجة كلِّ مكان في كل فصلٍ إلى الذّاريات - وهي الرّياحُ - ضعفًا وقوَّة، سُرعة وبُطئًا، كما تدلُّ صيغة (ذارٍ) على الشِّدَّة فيها، والقوَّة والعظمة.

لطيفةُ تقييد (الذاريات) بالقيد ﴿ذَرْوًا﴾:

للقيد في سياقه أهمّيَّةٌ في التَّنبيه إلـى الـجـانـبِ المقصود في المقيَّد

في تقييد (الذّاريات) بالمفعول المطلق ﴿ذَرْوًا﴾ تأكيدٌ لبيان هذا اللَّمح اللّامع في وصف (الذاريات)، وهو خصيصة الذَّرْو، وكَنْس الأتربة والحصباء ورَكْمُها؛ لتتكوَّن التُّربة الخصيبة في الوديان، ثُمَّ نقلها اللَّقاحَ بين الأشجار والنَّباتات، ثُمَّ ذرو قِطَع السُّحب وإفراغ مائها العذب النَّمير، فتُنبت الخير العَميم بإذن الله تعالى، وتنقل الحبوبَ إلى سفوح الجبالِ، فتنزلُ عليها الأمطار، فيَخضرُّ وجه الأرض، وتُشْرِق بالبهجة الحياة، وبه تنتقل الحبوبُ إلى البحار والأنهار، فتنمو طحالبها، وعليها تتغذّى أحياؤُها، إلى آخر ما لا يعلمه إلّا خالقُ الذّارياتِ ﷻ.

فأكَّد القيدُ ﴿ذَرۡوًا﴾ تلك الخصيصة، ونبَّه إلى عظيم قدرة الله تعالى فيها، ولفت إلى استيجاب الحمد والشُّكر لخالقِ (الذّاريات)، ومانحها صفةَ الذَّرو جلَّ في عُلاه، وفي نصب ﴿ذَرۡوًا﴾ على المفعولِ المطلَقِ لإرادَةِ تفخيمه بالتَّنكيرِ[1].

بلاغةُ جِناس الاشتقاقِ في ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوًا﴾:

الجناسُ عنصرُ تنبيهٍ ومخادعَةٍ

في تقييد (الذّاريات) بالقيد ﴿ذَرۡوًا﴾ المشتقِّ من لفظها تحقيقٌ للجناس البديع، وهو جناسُ الاشتقاقِ، الذي يدعَم التَّنبيه إلى أهمّيَّة صفةِ الذَّرو بالذّات في إقامة الحياة، وذلك بما يحقِّقه من عنصر المخادعة عن المعنى؛ إذ يُعيد عليك اللَّفظةَ، كأنَّه يخدعُك عن الفائدة، وقد أعطاها، ويوهِمك كأنَّه لم يَزِدْك، وقد أحسن الزّيادة، ووفّاها، كما أفادَهُ عبد القاهر الجرجانيُّ في بيان أثَرِ الجناس[2].

وجهُ مناسبة القسَم بـ(الحاملات وقرًا) لِما قبلها وما بعدها:

تتآزر المذكوراتُ في سياق القسم على بيان قدرة الله تعالى في خلقه

من المعلوم أنَّ "كلَّ معطوف عليه يُسبِّب ذِكرَ المعطوف؛ لالتقائهما في الجامع الخياليِّ، فالرّياح تذكِّر بالسَّحاب، وحملُ السَّحاب وِقْرَ الماء يُذَكِّر بحمل السُّفن، والكلُّ يذكِّر بالملائكة"[3]؛ وبذلك تتلازم المذكورات في سياق القسم، وتتآزر على بيانِ قدرة الله تعالى في خلقِه من جِهَة، كما تقرِّر كون هذا الكلام منزلًا من عند الله تعالى.

معنى (الفاء) في جملة: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرًا﴾:

هبوبُ الرّياح الذّاريات ملزومٌ لِلسُّحُب الحاملات وِقْرَ الأمطار

(الفاء) في قول الله تعالى: ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرًا﴾ فاءُ العطف، المؤذنةُ باستِلْزام المُقسَم به الثّاني (الحاملات) للمقسَم به الأوَّل (الذّاريات)، وتعاضُدهما وتآزرهما في أداء مهامِّ الثّاني، فلا بُدَّ للسُّحُب الحاملاتِ وِقْرَ الأمطار من هبوب الرّياح الذّاريات؛ لترفع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 338.
(2) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 8.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 337.

إليها أبخرة الماء، فتتكوَّن قطرات الأمطار، وكلٌّ معطوفٍ عليه في هذا السّياق يسبِّب ذِكْر المعطوف؛ لالتقائهما في الجامع الخياليِّ، ومعنى التَّعقيب في (الفاء) - على تنويع المقسَم به إلى رياحٍ وسُحبٍ وسُفن وملائكةٍ كرام - أنَّه تعالى أقسَم بالرّياح، فبالسَّحاب الَّذي تَسوقُه، فَبالفُلك الَّتي تُجريها بِهُبوبها، فبالملائكة الَّتي تقسِّم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحار ومنافعه.

أحـوال الـرّيـاح مـن الـنَّـفْـخ، فـالـتَّـكـويـن، فالإحياء يشابِهُ البعثَ في أحوالِهِ

وأمّا على وحدة المُقْسَم به، وأنَّه الرّياحُ في المواضع الأربعة؛ فلأنَّها تَبتدئ بالهبوب، فتَذْرو التُّراب والحصباء، فتنقل السَّحاب، فتجري في الجوِّ باسطةً له، فتقسِّم المطر[1]، فالفاءُ حينئذٍ لترتُّب الأفعال[2].

قال ابن عاشور: "ومن رشاقة هذا التَّفسير أنَّ فيه مناسبةً بينَ المقسَم به والمُقْسَم عليه، وهو قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾، فإنَّ أحوالَ الرّياح المذكورةَ هنا مبدؤُها: نَفْخٌ، فتكوينٌ، فإحياءٌ، وكذلك البعث مبدؤه: نفخٌ في الصّور، فالتئامُ أجسادِ النّاس الَّتي كانت معدومةً أو متفرِّقة، فبثُّ الأرواح فيها، فإذا هم قيام ينظرون، وقد يكون قولهُ تعالى: ﴿أَمْرًا﴾ إشارةً إلى ما يُقابِلُه في المثال من أسباب الحياةِ، وهو الرّوح؛ لِقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: 85]"[3].

وقد وصف الشَّوكانيُّ هذا القولَ - وهو اتِّحاد المقسَم به - بأنَّه ضعيفٌ جدًّا[4]، ومرجِعُ ضَعْفه - على هذا - أنَّ لَفْت المخاطَبين إلى أنواعٍ مِن عظائم المخلوقات متعدِّدة المنافع، أولى مِن لَفْتِهم إلى نوعٍ واحد؛ مهما تعدَّدت منافعُه.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 395.
(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 7.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 339.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 98.

أنـواع الحوامل في مـخلـوقـات الله تعالى تدلُّ عـلى وحدانيَّته وكمال قُدرته

معنى (أل) في ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ﴾، ودلالةُ جمعِها:

(أل) في ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ﴾ يجوزُ أن تكونَ للجنسِ، وهي ذاهبةٌ بالأذهان نحوَ كلِّ حامل، مثل الرّياحِ الحاملات السُّحُب، والسُّحُبِ الحاملاتِ الأمطارَ، والأمَّهات الحاملات الأجنَّةَ، والمحيطات والبحار والأنهار الحاملاتِ السُّفنَ، وغير ذلك ممّا يَحمل ثِقْلًا ووِقْرًا وعِبْئًا يدلُّ على الوحدانيَّة وكمال القدرة الإلهيَّة.

والقسَمُ بتلك الأصناف لافتٌ بقوَّة إلى أهمّيَّتها في قيام الحياة أصلًا، وتحقُّق منافع الخلق، وإن ذهب أكثر المفسِّرين إلى أنَّ (الحاملات) هي "السَّحابُ الَّتي تحملُ وِقْرَها مِن الماءِ"[1]، و"التَّظليل في الحَرِّ، ونحو ذلك مع ما فيه من الآيات؛ إذ هو يُمسكه في الهواء حيث لا يَقع بِسَوْق الرّياح مع ما فيه من الحمل والوقر، ثُمّ يرسِل المطر حيث أمر؛ إذ قد يوجد السَّحاب ولا مطرَ؛ فدلَّ أنَّه لم يرسل بِنَفْسِه، بل بالأمر يرفع، ويمسك، ويرسل، وهو في نفسه مُسَخَّر لا بُدَّ له من مُسَخِّر؛ إذ لو كان عمله بالطَّبع؛ لم يختلف باختلاف الأحوال، وفيه آيات البعث؛ إذ خَلْقُ مثله لا يكونُ إلّا لعاقِبَةٍ"[2].

ويَحتَمِل أن تكون (أل) في ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ﴾ للعهدِ العلميِّ، والمرادُ بها: "الرّياح، يحملن وِقْرًا بالسَّحابِ، فتكون الرّيح الأولى مقدِّمة السَّحاب؛ لأنَّ أمام كلِّ سحابة ريحًا، والرّيحُ الثّانية حاملةُ السَّحاب؛ لأنَّ السَّحاب لا يَستقلُّ، ولا يسير إلّا بريح، وتكون الرّيح الثّانيةُ تابعةً للرّيح الأولى من غير توسُّط"[3].

ويجوزُ أن تكون (الحاملات) "السُّفنَ الموقرة بالنّاس وأمتاعهم، أو جميع الحيوان الحامل، وفي جميع ذلك معتبَرٌ"[4].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 482.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 373.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 361.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 171.

لطيفةُ صوغ (الحاملات) اسمَ فاعلٍ:

الحاملات راسخاتٌ في بابها ثابتاتٌ لا تهتزُّ

في صوغ (الحاملات) اسمَ فاعل دلالةٌ على قوَّة رسوخها في بابها، وظهورها في صورة الثّابت، الَّذي لا يهتزُّ، ولا يتذبذب، مثل قوَّة الرّياح في قيامها بحمل تلك السُّحب الَّتي تمرُّ بثبات، على الرُّغم مِمّا تحملُه مِن مقاديرِ الأمطار الثَّقيلة، وعبورها بها البقاعَ والفيافيَ والبِحار؛ إذ تُفرغ ما يشاءُ الله تعالى أنْ تُفْرِغَه حيث شاءَ.

لطيفةُ حذفِ الموصوفِ والاكتفاء بصفة (الحاملات):

الاستغناء عن ذكر الموصوف بالحاملاتِ، يعظِّم في النَّفس إجلال الله تعالى

في حذف الموصوفِ في جملة: ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ إفادةٌ للعموم؛ إذ يَذهب الذِّهْنُ في تقدير الموصوفِ مذاهبَ شَتّى، فتَتَربّى عنده عقيدةُ التَّوحيد، ويتعاظم في نفسه إجلالُ الله تعالى، الَّذي خلق كلَّ هذه الأصنافِ وأفرادِها من أنواع (الحاملات)، الَّتي سبق بيانُ احتمالِها مِنَ الأصنافِ.

وإلى ذلك فحذْفُ الموصوفِ - العامِّ - والاكتفاءُ بالصِّفة يُؤْذِن بأنَّ العِبرة والشَّأن تتعلَّق بها لا بالموصوف المحذوف، وأنَّه لا أهمّيَّة له دونَها.

دلالة التَّعبير بـ ﴿وِقْرًا﴾:

حملُ الرّياح والسُّحب تلك الأثقالَ تنبيهٌ على عظيم القدرة الإلهيَّة

في مخالفة النَّظم الكريم هنا في توكيد (الحاملات) بالمفعول المطلق المشتقِّ من لفظها (حملًا)، فيطَّردُ النَّظم على نسق ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾، تنبيهٌ على عظيم خَلْق الله تعالى في إقْدارِه سبحانه تلك (الحاملات) على حَملِ هذا الثِّقْل الثَّقيل، فهذه الرّياح تحملُ سُحُبًا فيها من مياه الأمطار ما يَثْقُلُ جدًّا، والدَّليل على ذلك أنَّ سيلًا واحدًا يسيل منها يُزيل بلادًا بأكملها، فسبحانه خالقُها بهذا الاستعدادِ لحَملِ الأثقال!

وقد جاء من الآيات القرآنيَّة ما يؤيِّد وصفَ السَّحاب بحمل الأمطار الثَّقيلة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا

بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: 57]، وقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [الرعد: 12][1]، وهكذا يلفت المفعول به ﴿وِقْرًا﴾ إلى تلك العظمة الإلهيَّة في خلق (الحاملات).

دلالةُ تنكير ﴿وِقْرًا﴾:

في التَّنكيرِ إيجازٌ تفاصيلَ كثيرةٍ، ولفت لها بقوَّة

يدلُّ تنكير ﴿وِقْرًا﴾ على ثِقَلِه وضخامته، فالبحار تحمل السُّفن العظيمةَ الَّتي شبَّهها الله تعالى بالجبال في قولِه الكريم: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرحمن: 24]، كذلك في تنكير ﴿وِقْرًا﴾ تنبيهٌ على كونه وقرًا عجيبًا؛ إذ بالماء يحيا العبادُ والبلادُ.

وعلى القول بتوسيعِ مَعْنى الوِقر إلى غيرِ الماء ممّا يُحْمَلُ، فإنَّ مِمّا يُجمَلُ: الطِّفْلُ المكتمل يكونُ في بطن أمِّه، تحمِلُه، وتتحرَّك به يقظةً ومنامًا، وعملًا وسكونًا، وهكذا يحكي تنكيرُ ﴿وِقْرًا﴾ قصصًا عظيمةً عجيبةً بإيجازٍ.

معنى (الفاء) في جملة ﴿فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا﴾:

بيانُ التَّقاربِ بين المهامِّ المنوطةِ بكلٍّ مِنَ المتعاطفَيْنِ

(الفاء) في قول الله تعالى: ﴿فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا﴾ عاطفة، ومؤذِنَةٌ كذلك بتقارُب المهامِّ المنوطة بالمعطوف والمهامِّ المنوطة بالمعطوف عليه، فالسُّحب الحاملاتُ مياهَ الأمطار تُفْرِغ مياهها، فتجتمع، وتكوِّن الأنهارَ، وتغذّي البحار، فتجري السُّفن بإذن ربِّها ﷻ بكلِّ يُسر وليونة، حاملةً أرزاقَ العباد من بلادٍ إلى أُخرى، ممّا لا يمكن نقله بَرًّا ولا جوًّا، فسفينة واحدةٌ تحمِلُ أثقالًا عظيمةً، وتجري بها آلافَ الأميالِ بإذن الله تعالى، فسبحان مَن أذِن في ذلك! وله الحمد كلُّه والشُّكر كلُّه.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 10.

معنى (أل) في ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ﴾، ودلالةُ جَمعِها:

الـجـاريـاتُ في كون الله تعالى المعلومةُ للبشر أعمُّ وأشملُ من ساكناتِه

(أل) في ﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ﴾ لتعريف الجنسِ، فتفيدُ مَعْنى الاستغراقِ؛ إذ يدخُلُ فيها الفُلك في البحر، والسّيّارات في البرِّ، والطّائرات في الجوِّ، والدَّوابُّ كلُّها، وكلُّ ما يخلقه الله تعالى من (الجاريات)، وإن كانت قبل هذه المخترعات الحديثة تأخذ بالأذهانِ إلى الجاريات في البحر، والإبل والأحصنة في البرِّ، وقديمًا وصفَها الشّاعر بالسِّباحة؛ إذ يقول:

أعَزُّ مَكانٍ في الدُّنَى سَرْجُ سابِحٍ *** وخَيْرُ جَلِيسٍ في الزَّمانِ كِتابُ[1]

ومن جنس (الجاريات) كواكبُ الكون وأنجمُه ومجرّاته، الَّتي لا يحيط بها علمًا إلّا الله تعالى، والله تعالى يقول: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس: 38]، ممّا يدلُّ على أنَّ تلك (الجاريات) الفلكيَّة أعظمُ خلقًا، وأسرع جريًا بيُسر ولطفٍ لا يكاد يُحسُّ، بل الأرض نفسُها جارية لا تتوقَّف تبعًا لجَرْي الشَّمس، فإنَّها من توابعها، كما أثبت العلمُ، وعلى ذلك فالجاريات في كون الله تعالى ممّا يقع تحت إدراك البَشر أعمُّ وأشمَلُ من ساكِناتِه.

لطيفةُ صوغ (الجاريات) اسمَ فاعلٍ:

صيـغـةُ اسـمِ الفاعل تُصَوِّر الـتَّـمـكُّـنَ في الجَرْي

في صوغ (الجاريات) اسمَ فاعلٍ دلالةٌ على الثُّبوت، بخلاف الفعلِ الَّذي يُشْعِرُ بالتَّجدُّدِ، وقد يُفيدُ الانقطاعَ، فكانت صيغةُ اسم الفاعلِ (الجاريات)؛ لتصويرِ حالِ الرّياحِ والسُّفُنِ في البحرِ تصويرًا ثابتًا مطَّردًا، وذلك يوحي بالتَّمكُّنِ والانسيابِ الهادئ، وهذا المعنى يُقوّيه القَيْدُ بعدُ في ﴿يُسۡرٗا﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿يُسۡرٗا﴾:

في إلحاقِ (الجاريات) بالحال ﴿يُسۡرٗا﴾ - أي: جريًا ذا يُسْرٍ

(1) المعري، معجز أحمد، ص: 403.

وسهولة[1] – دقَّة عالية؛ بحيث لا يصلح لذلك الموضع إلّا ﴿يُسْرًا﴾، ففي مادَّته أجمعُ خصائص الجاريات وأدقُّها، وأكثرها لَفْتًا للإنسان، وفي تقييد الجارياتِ باليُسْرِ احتراسٌ بديعٌ؛ إذ الجَرْيُ عادةً ما يرتبِطُ بالجُهْدِ، فجاءَ لفظُ ﴿يُسْرًا﴾ يُضْفي على المَعْنى خفَّةً، وذلك يُعزِّزُ جمالَ التَّصويرِ القرآنيِّ ويجعَلُهُ أنسبَ لمقامِ الامتنانِ.

يُسْرُ جريانِ الجاريات في الكون مِن أعظم آيات الله تعالى

نُكْتةُ تنكيرِ ﴿يُسْرًا﴾:

في تنكير ﴿يُسْرًا﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ تنويهٌ بتلك النِّعمة، نعمةِ يُسر جريانِ الجارياتِ على كثرتها وسُرْعَتِها.

موقع ﴿يُسْرًا﴾ من التَّركيب:

جاء لفظُ ﴿يُسْرًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ نعتًا لمصدرٍ محذوف، وصفاتُ المصادرِ المحذوفة تعودُ أحوالًا[2]، فانتصب ﴿يُسْرًا﴾ على المصدريَّة أو على الحالِ[3]، أي: ميسَّرةً[4]، أو صفةً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: جريًا ذا يُسرٍ[5].

يُسْرُ جري الجاريات يُحقِّق اليقينَ بعظمَةِ الخالقِ سُبحانَه

وعلى كون ﴿يُسْرًا﴾ وصفًا لمصدر محذوفٍ، يكون في الاستغناءِ به عن الموصوف توفيرُ العناية لهذا الوصفِ، ودعوة المتلقّي إلى إنعام نظَرِه في استِكناهِ أسرار تلك العظمةِ، فإن فعلَ؛ رجعَ بإيمانٍ كاملٍ ويقين عميقٍ بعظمة الخالقِ ﷻ.

معنى (الفاء) في جملة: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾:

(الفاء) في قول الله تعالى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ عاطفة، وهي مؤذنةٌ بقوَّة التَّرابط بين متعاطِفَيها، فقد سُبقت بذكر أسباب الأرزاق من (الذّاريات)، وما يتعلَّق بمهامِّها، و(الحاملات) وما تَلْفِتُ إليه مِن أثقالها، و(الجاريات) وما تَجْري به من أثْقالِها.

تدرُّج المعاني القرآنيَّة يتَّسق مع تدرُّج الدَّورة الكونيَّة

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 395.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 171.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 98.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 5.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 136.

وكلُّ ذلك يحتاج إلى ضبطِ توزيعِ تلك الأرزاق والعطاءات الرَّحمانيَّة وفْقَ حكمته تعالى المطلقة، فيجيء ذِكْرُ الملائكة الكرام الموكَّلين بتقسيم تلك الأرزاق، الَّتي تمَّت دَوْرَتُها، واكتملت على أبدع ما يكونُ مِنَ الكمال، فيصيب كلُّ مرزوقٍ رزقَهُ بقِسمة تلائمُ كلَّ واحدٍ بحسَب الحِكْمَةِ الإلهيَّة؛ فسبحان مَن هذا كونُه، وهذا كلامُهُ وبلاغَتُه!

معنى (أل) في ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ﴾، ودلالة جمعه:

(أل) في ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ﴾ للعَهْدِ العلميِّ؛ لتعريف نوعٍ أو قِسْم من ملائكة الله تعالى الكرام وتحديدهم، من الملائكةِ الَّتي تُقَسِّمُ أمرَ الله تعالى في خلقِه[1]، الَّتي تسوق السُّحب وتقودُها إلى حيث قُدِّر لها أن تُفْرِغ ماءَها، وتنفخ في الجنين الرّوح... إلى غيرِ ذلكَ.

أعـدادُ الملائكةِ الـكـرامِ كـثيرةٌ، ومـنـافـعُـهـم ومـهـامُّـهـم عظيمةٌ

وذهب بعضُ أهل التَّفسير إلى أنَّهُم جبريل، وهو صاحب الوحي، وميكائيل وهو صاحبُ الرِّزق والرَّحمة، وإسرافيل وهو صاحب الصّور، وملك الموتِ وهو قابض الأرواح[2]، فيكون المرادُ: الملائكةَ تأتي بأمرٍ مختلف بالغلظة والرَّحمة والموت، وبالخصْب والجَدْب، والمطر والموت والحوادث، وعلى هذا فاللّام في ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ﴾ عهديَّةٌ أيضًا، يُرادُ بها كبارُ الملائكةِ وعُظماؤُهم.

ويرى آخرونَ أنَّ (المقسِّمات) هي السَّحاب، أقسَمَ الله به الحظوظَ بين النّاس[3].

وفي جمع (المقسِّمات) دلالةٌ على كثرتهم، وتنوُّع مهامِّهم، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31]، ويُؤخذ من جمع (المقسِّمات) أنَّ "الملائكةَ منافعُهم عظيمة ظاهرَةٌ، وعِظَمُ قَدْرِهم وجلالةُ خطَرهم واضحٌ"[4].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 482.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 361.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 361.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 374.

نكتةُ حذفِ الموصوف والاكتفاء بالصِّفة (المقسِّمات):

مـردُّ الـرِّزق إلى تقدير الله تعالى وفقَ حِكْمَتِه

في حذف الموصوف (الملائكة) والاكتفاء بالصِّفة (المقسِّمات) تصفية للذِّهنِ وتوفير لعنايتِه على تدبُّر الوصف لا الموصوف، ففي مادَّة (المقسِّمات) تنبيه قويٌّ إلى خروج قضيَّة الرِّزق عن طوق البشر إلى تقدير الله تعالى ومطلق حكمته؛ إذ تُقَسِّم الملائكةُ الموكَّلون بالتَّقسيم وفْقَ تقدير العزيز العليم، ولا يتبقّى للإنسان إلّا الأخذ بأسبابه في الحياة، حامدًا ربَّه شاكرًا فضله، مستريحًا ومرُيحًا بالَه، دون تطلُّع إلى ما لم يأته مِن الرِّزق.

نكتةُ صوغِ (المقسِّماتِ) اسمَ فاعلٍ، ولطيفةُ إيثاره على (القاسمات):

استقرارُ القِسْمَةِ وكثرتُها وتَكرارُها

في صوغ (المقسِّمات) اسمَ فاعلٍ إشارة إلى استقرار تلك القسمة، والفراغ من ضَبْطِها، وأنَّ الملائكة الكرام الموكَّلين بالتَّنفيذ قائمون على هذه المهمَّة دون زيادةٍ أو نقصان، أو إحداثِ اجتهادٍ منهم، فإنَّهم يَفْعَلون ما يُؤمرون.

وجاءت الصّيغة (المقسِّمات) - وهو من الفِعْلِ (قسَّمَ) المضعَّفِ العَيْنِ - دون (القاسماتِ)؛ للدَّلالةِ على التَّكرار والتَّكثيرِ في القِسمَةِ، فهو أبلَغُ من (القاسماتِ) الَّذي يَصْدُقُ بالمرَّةِ الواحدةِ، فكان التَّشديدُ مفيدًا التَّكثيرَ والتَّعظيمَ وتوكيدَ المَعْنى.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَمْرًا﴾:

تـقـاديـرُ الـلـه تـعـالى وشـؤون خَلْقِه الموكَّلة بها الملائكةُ، كلُّها أوامرُ نافذَةٌ

﴿أَمْرًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ مفردُ أمور، وهو وإن كان مفردًا إلّا أنَّه يُرادُ به الجِنْسُ، فيندرج تحتَه كلُّ شأن من الشُّؤون والأحداث، وفي التَّعبير بـ ﴿أَمْرًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ تحقُّقَهُ حتمٌ لازم، كما تُشْعِرُ بذلك الدَّلالة اللُّغويَّة للأمرِ، الَّذي هو طلبُ الفِعْلِ، وهو دالٌّ في الأصلِ على لزومِ الفِعْلِ وتحتُّمه.

وبذلك يراد بـ ﴿أَمْرًا﴾ الأمور، مِنَ الأرزاق والآجال وأمر الرّياح

والجِبال وغير ذلك؛ لأنَّ كلَّ هذا وُكِّلَت به الملائكةُ[1]، ولَم يُعَبَّر بالجَمعِ (أمورًا)؛ لأنَّ الفَرْدَ أنسَبُ لتناسُبِ رُؤوسِ الآيِ مع ظهور الأمر[2].

دلالةُ تنكيرِ ﴿أَمْرًا﴾، وموقعُهُ من الجملة:

تنكير ﴿أَمْرًا﴾ يتَّسق مع دِلالته على عُموم الأمور والأشياء، عِظَمًا ودقَّة، ووُضوحًا وخفاء، ممّا تقوم به الملائكة الكرام من تنفيذِ أمر الله تعالى في تقسيمه وإمضائه، و﴿أَمْرًا﴾ مفعولٌ به لـ (المقسِّمات)، وذهبَ بعضُ أهل العلمِ إلى أنَّه حالٌ، "أي: فالمقسِّمات مأمورة، والمفعول به - حينئذٍ - محذوف، أو الوصف منزَّلٌ منزلة اللّازم، أي: تفعل التَّقسيم مأمورةً[3]، وله وِجهةٌ بلاغيَّة داعمةٌ، هي "أنَّ الكلمات: ﴿ذَرْوًا﴾، و﴿وِقْرًا﴾، و﴿يُسْرًا﴾، و﴿أَمْرًا﴾ كلُّها أحوالٌ متلبِّسة بهذه الأشياء، الَّتي أقسم الله ﷻ بها، وأنَّ الله ﷻ أقسم بها في تلك الحالِ المتلبِّسة بها لا في غيرها، وأنَّ هذه الحال هي الَّتي تجعل لهذه الأشياء شأنًا وقدرًا، ولو أنَّها تجرَّدت من هذه الحال، أو لَبِسَت حالًا أخرى؛ لَما كان لها هذا الشَّرف العظيم بأن أقسَمَ الله بها؛ فإنَّ في قَسَمِ الله ﷻ بالشَّيء تكريمًا له، ورفعًا لقدره، وتنويهًا لِمَقامه بين الأشياء، والتَّقدير: فالرّياح ذاريةً، والسُّحب موقرةً، والسُّفن ميسَّرًا لها الجريُ، فالملائكة مأمورة بما تقسِّمه في النّاس من أرزاق وأرزاء.

تنكير (أمرا) يدعم دلالة عموم أمورِ الكَوْنِ وشُؤونه كلِّها

فالرّياح والسُّحب والسُّفن والملائكةُ هيَ في أحوالٍ لها فيها وجودُ عامل مؤثِّر في حياة النّاس، وفي قسَمِ الله ﷻ بها، وهي متلبِّسة بأحوالها تلك دعوةٌ إلى النّاس أن يَلتَفِتوا إليها، وأن يَرَوا آثارَ رحمة الله بهم فيها، فلو شاء الله؛ لسَكَنَت الرّيح، فلم تَتَخَلَّق السُّحب، ولم تَجْرِ السُّفن، ولَما كان للملائكة عملٌ على هذه الأرض؛ إذ لا حياة فيها

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 171.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 5.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 5.

مع فُقْدانِ الماء الَّذي يقولُ ﷺ فيه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: 30]، وهذا هو السِّرُّ في هذا التَّرتيب المتعاقب بين هذه الأشياءِ"[1].

عِلَّةُ فصلِ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ عمّا قبله:

المناسباتُ بين المقسَم به والمقسَم عليه في الذِّكر الحكيمِ بديعَةٌ

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه جوابُه؛ إذ إنَّ الجُمل الأربع السّابقة ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ كلُّها قسَمٌ متتابعُ التَّفاصيل متلاحقُ العناصر، يلحُّ على توكيدِ حصول المقسَم عليه، ويُهَيِّئُ له؛ فإذا جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ جوابًا لذلك القسَم؛ تجلَّى الاتِّساق البديع بينهما.

معنى (إنَّ) في جملة: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾:

أحوالُ الكافرين تقتضي توكيدَ وعيدِهم، كما تقتضي أحوالُ المؤمنين توكيدَ وعْدهم

(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيدِ، اقتضاها تمرُّد المتمرِّدين على الرَّسول ﷺ والقرآنِ الكريم، وإنكارِ المنكرين للبعث والجزاءِ والحساب في الآخرة، واقتضاها أيضًا تطمينُ المؤمنين ودعم صبرِهم في حمل عِبء الدَّعوة، ومعاناتهم في جهاد المشركين، وكأنَّه ظاهرُ حالهم يستبطِئُ النَّصر والتَّمكين، فجاء الوعدُ بذلك مؤكَّدًا بـ (إنَّ) تطمينًا وتثبيتًا لقلوبهم، ودعمًا لصَبْرهم، ولو شاء الله تعالى؛ لحَقَّق النَّصر بلا جهدٍ منهُم ولا جهاد، ولكنَّها سنَّة الله تعالى في الدَّفع، وفي إسعادِ العباد بقطف ثمارِ الجهاد وذوق لذيذِ ثمارِها.

معنى (ما) في ﴿إِنَّمَا﴾:

من خصائص النَّظم الكريم اصطفاؤُهُ لتعبيراتِهِ أغزرَ الأدواتِ دلالةً

(ما) في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ تحتَمِلُ الموصوليَّة، ويكون المعنى: إنَّ الَّذي توعَدونَهُ أيُّها الكافرون - والموعودُ: البعثُ[2] والحساب والانتقامُ مِن الظّالمين - لآتٍ لا محالة، وما توعدونه أيُّها المؤمنون من النَّصْر والتَّمكين، وظهور الدّين؛ لحاصِلٌ ومحقَّق كذلك، فلا تَبْتَئِسوا، واعمَلوا على ذلك واثقين مُطمئنّين.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 502 - 503. (بتصرّف).
(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 371.

وتحتَمِل (ما) المصدريَّة، فيكون المعنى: إنَّ وعيدَ الله تعالى إيّاكم أيُّها الكافرون، ووعدَ الله تعالى لكُم أيُّها المؤمنون محقَّق لا محالة، فالَّذي أذْرى الذّاريات ذروًا، وحمَّل الحاملاتِ وقرًا، وأجرى الجاريات يُسرًا، وكلَّف المقسِّمات أمرًا، وهيَّأ لكم ذلك كُلَّهُ في كونهِ العظيم، قادرٌ على تحقيقِ وعيدِه، والوفاء بوعده، ضامن هَذا وذاكَ.

وهكذا يُثري التَّعبير بـ (ما) دلالاتِ السّياق، ويعظِّم الفائدة، ويحلِّق بجناحَي المعنى في سماء النَّصِّ الشَّريف.

وإذا كانت (ما) موصولةً؛ فالعائد محذوف، أي: إنَّ الَّذي توعدونه، أو توعدون به، وعلى كونِها مصدريَّة، يكون التَّقديرُ: إنَّ وعدكم أو وعيدكم؛ لأنَّ الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يكون مضارعَ (وَعَد)، وأن يكون مضارعَ (أوْعَد)، والثّاني أنسَبُ لقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: 45]؛ ولأنَّ المقصودَ التَّخويف والتَّهويل، ووردَ عن مجاهدٍ: أنَّ الآية في الكفّار، وهو يُؤَيِّد الوعيد[1].

على أنَّه لا تنافيَ بين حملِ الفعْلِ على الوعيدِ وحملهِ على الوَعْدِ، فيُحْمَلُ عليهما معًا، من باب حمل المشترَكِ على معنَيَيْهِ، وهو جائزٌ في قول الجمهورِ.

نكتةُ إيثارِ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل (ما توعدون):

الإشارَةُ إلى زمَنِ تحَقُّق الوعدِ والوَعيدِ

فائدة التَّعبير بالمصدر المؤوَّل الدَّلالة على زمن تحقُّقِ الوعد أو الوعيدِ، وهو المستقبل؛ لأنَّ المصدر الصَّريح لا يدلُّ بنفسِه على زمنٍ، وفيه أيضًا الدَّلالة على أنَّ الحكم مقصورٌ على المعنى المجرَّد للفعلِ، وهو الوعد أو الوعيدُ بقطعِ النَّظر عَن أيِّ وصفٍ آخرَ يُلابِسُه مِن كيفيّاتٍ وهيئاتٍ لتَحَقُّقِه.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 5.

دلالةُ المُضارَعَة في الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾:

وعيدُ الكافرين قـريـبٌ كـأنَّـه حـاضـر، ووعـدُ المـؤمـنـين لائـح يـنـتَـظِـرُ منهم أسبابَه

فائدة صوغ فعل الوعد أو الوعيد في ﴿تُوعَدُونَ﴾ مضارعًا استحضارُ وعيدِ الكافرين، وتقريبُه، والتَّهديد به كأنَّه حاضِر ماثِلٌ أمام أعينهم، كما في مُضارعة الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ تجديدُ الوعدِ بالنَّصر والتَّمكين، وتطمينٌ باستمراره لائحًا بالنِّسبة للمؤمنين، وأنَّه وعد حيٌّ لا يذبُل، ولا يَفتُر، ولا يموت، وأنَّه باقٍ مستمرٌّ متجدِّدٌ يرقب أخذهم بتمام أسبابه، فيحينُ.

نكتةُ إسنادِ الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ إلى ضمير المخاطَبين مبنيًّا للمَفعولِ:

العنايةُ بالفِعْلِ مع قطعِ النَّظر عن الفاعِلِ

في بناء الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ للمفعول دلالةٌ على علمهم بالمُتوعِّد للكافرين، والواعِد للمؤمنين وهو الله ﷻ، وما دام معلومًا لديهم؛ ففي طيِّ ذِكره عنايةٌ بالوعيد والوعد في ذاتهما بقطعِ النَّظر عن المتوعِّدِ والواعِدِ.

ثُمَّ في إسنادِ الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ إلى ضمير المخاطَبين هنا إشارات بليغة الأثر فيهم - كافرين ومؤمنين - فإسنادُهُ إن كان وعيدًا إلى ضمير المخاطَبين الكافرين يوحي بأنَّهم باختيارهِم الكفرَ موافقون على الوعيد، حتّى كأنَّهم هم المتوعِّدون لأنفُسِهم، وفي إسناده لضمير جماعة المخاطَبين المؤمنين إشادةٌ بعدَم شكِّهم في وفاء فاعل الوعد ﷻ، كأنَّهم هم الواعدونَ أنفسَهم، ولا أَحدَ أوفى بعهد الله تعالى مِن وعد الواعدِ نفسَه؛ إن ضَمِنَ بقاءَه، والأوفى بالوعدِ على الإطلاق الله ﷻ، كما قال سُبحانَهُ: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 111].

بيانُ مرجِع ضمير المخاطَبين في ﴿تُوعَدُونَ﴾:

خطابُ القرآن الكريم رحمةٌ بالمؤمنين، عذابٌ على الكافرين

ذهب جماعةٌ من أهل التَّفسير إلى أنَّ الآية خطابٌ "للمشركين، كما هو مقتضى التَّأكيد بالقسَم، وكما يَقْتَضيه تعقيبُه بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ [الذاريات: 8]"[1]، ووجهُ هذا التَّرجيح:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 339.

أنَّ "اليمين مع المُنْكِر بوعيدٍ لا بوعدٍ"[1]، والآية "وعيدٌ محضٌ بيوم القيامة"[2]، ويجوز أن يكون الخطاب للمؤمنين؛ وذلك بناءً على احتمالِ كونِ الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ من (وعد) ومن (أوعد)، وعلى هذا التَّوجيه يكون الخطابُ القرآنيُّ الكريم رحمةً بالمؤمنين، وعذابًا على الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: 82].

لطيفةُ حذفِ متعلِّق الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾:

حـذفُ المتعلّق مشعِرٌ بالعمومِ

حُذِفَ متعلِّق الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ مع احتمالِه الوعدَ والوعيد، ممّا يُقرِّر احتمالَه مخاطبةَ المؤمنين والكافرين جميعًا، ويبقى لكلِّ فريق تقديرُ ما يناسبه من هذين - الوعدِ والوعيد - ولذلك عمَّم إمامُ المفسِّرين قائلًا: "إنَّ الَّذي توعدون أيُّها النّاسُ من قيامِ السّاعةِ، وبَعْثِ الموتى مِن قبورِهم"[3]، فإن كان خطابًا للكافرين؛ فيكون المتعلِّق المحذوف ﴿تُوعَدُونَ﴾ مِن "عذاب الآخرة، وعذاب الدُّنيا، مثل الجوع في سِنِي القَحْطِ السَّبْع، الَّذي هو دعوةُ النَّبيِّ ﷺ عليهم بقوله: «اللّهمَّ اجْعَلْها عَلَيْهِم سِنينَ كَسِني يوسُفَ»[4]، وهو الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدخان: 10 - 11]، ومثل عذاب السَّيف، والأسر يوم بدر الَّذي توعَّدهم الله به في قوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان: 16]"[5]، وإن كان خطابًا للمؤمنينَ، فيكون المتعلِّق المحذوفُ ﴿تُوعَدُونَ﴾ من سعادتي الدُّنيا والآخرة.

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لَصَادِقٌ﴾:

اللّامُ في الخبر ﴿لَصَادِقٌ﴾ لامُ التَّوكيد، الدّاعمة لصِدْقِ خبرِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 162.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 172.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 484.
(4) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (6200).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 339.

تحقيقِ الوعيد للكافرين، والوفاء بالوعد للمؤمنين، وإنَّهم وإن كانوا لا يشكّون في صِدق وعده سبحانه إلّا أنَّ خالقَ الإنسان العالمَ بِما توَسْوِسُ به نفسُه؛ يعلَمُ أثرَ التَّوكيد بهذه المؤكِّدات (إنَّ) و(اللّام) واسميَّة الجملةِ في تطييب النُّفوس، وتثبيتها على الدّين القويم، فله الحمدُ والشُّكْرُ.

توكيدُ الله تَعالى الخَبَرَ لِلمُؤمِنين تَطييبٌ لنفوسهم وتثبيتٌ لها

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردة الصِّدق في الخبر (صادق):

في اصطفاء النَّظم الكريم مفردة الصِّدق خبرًا عن الوعد بالنَّصر والتَّمكين براعةٌ لا يوفّي المقامَ حقَّه غيرُها، ولو أدَرْنا كلماتِ اللُّغة كلَّها على هذا الموضع، فإنَّها أشدُّها صراحة ومباشرةً، وأقواها تهديدًا للكافرين، وأقربُها تطمينًا للمؤمنين، وأوفاها بالغرَضِ على كلِّ حال، فالمعنى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ "لكائنٌ، حقٌّ، يقينٌ"[1]، و"الصِّدق إنَّما يُستَعمَل في الخبر، فكأنَّه قال: إنَّ ما أخْبَرَكُم الرَّسول بالبعث، أو وعدكم به؛ لصادق في خبرِه ووعده؛ إذِ الوعدُ في الجُملَةِ ممّا قد يكون صِدقًا أو كَذِبًا، فأكَّد هذا الوعدَ مِنَ الرَّسول بالقسَم، إنَّه لصادِقٌ فيما وعَدَ مِنَ البَعْثِ وغيرِه"[2].

تهديدُ الكافرين وتبشيرُ المؤمنين يقتضي لفظًا صريحًا

دلالةُ صوغ (صادق) اسمَ فاعل:

صيغ الخبر (صادق) اسمَ فاعلٍ، "والمعنى: لَصِدْقٌ، فوُضِعَ الاسمُ مكانَ المصدر"[3]، وهو دليلُ ثبوتِهِ والقطعِ به، وتحقُّقه لا محالة؛ لمطابقة الإخبار به للواقع، وسَيَرَونَ مطابقتَه له؛ إذا وقع، ويعلمون أنَّ ذلك الواقعَ حقٌّ ثابت لا خيال لمطابقتِهِ للخَبر[4]؛ إذ تَلْتَقي مادَّة (الصِّدق) مع صيغة (فاعل)، فتَتآزرانِ على تحقيق غرض الخبرِ، وقَد كان، فقد تهيَّب كثيرٌ من المشركين، ودخلوا في دين الله تعالى

المُبالغة في وصْفِ الوعدِ والوعيد بالصِّدق

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 484.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 374.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 485.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 448.

أفواجًا، كما ثبت المؤمنون، وجاهدوا مع الرَّسول الكريم ﷺ حقَّ الجِهاد، حتّى رأوا وفاءَ الوعدِ بشارةً، وصِدق الخبَر واقِعًا، وقَطْف الثَّمرة لذيذة.

وهكذا يَبْقى الوعدُ لائحًا لكلِّ المؤمنين في كلِّ زمانٍ ومكان ينتظر منهم الأخذَ بأسبابه؛ ليمدَّهم الله تعالى بما أمدَّ به الأوائل السّابقين، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر، ينصر من يشاءُ، وهو العزيز الرَّحيم.

والوصف باسمِ الفاعل بدلَ المصدر هُنا يفيد أيضًا المبالغةَ، فكما أنَّ من قال: فلان لطفٌ محضٌ، يجب أن يكون قد بالغ، كذلك من قال: كلام صادِقٌ، وبرهان قاهِر للخَصْم، أو غير ذلك يكون قد بالَغَ[1].

بلاغةُ المَجاز في قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾:

وعيدُ الله تعالى ووعـدُه صـادقٌ محقَّقٌ

في إسناد الصِّدق إلى الوعد أو الوعيدِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ مجاز عقليٌّ[2]؛ إذ "وعْدٌ صادقٌ كـ ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة: 21]"[3]، وإنَّما الصّادقُ المتوعِّدُ أو الواعدُ، وفي نقل الصِّدق منه إلى الوعيد أو الوعد نفسِه مبالغةٌ في تحقيقِ الموعودِ به أو المتوعَّدِ بهِ، وأنَّه حاصل لا محالة.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾:

الـجـمـعُ بين الوَعدَين

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ عاطفة، تجمَعُ وعدَين وتؤلِّف بينهما؛ تهديدًا وتخويفًا بالوعيدِ الخطير للكافرين، ومنحةً وكرامة بالوعد الطَّيِّب للمؤمنين العاملين، وعُطِفَت هذه الجملةُ على ما قبلَها؛ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ لاتِّحادهما في الخبريَّةِ، وبينَهما تناسبٌ لفظيٌّ ومعنويٌّ، فأمّا اللَّفْظيُّ؛ فاشتراكُهما

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 162.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 340.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 395.

في الاسميَّةِ، وتأكيدُ الخبرِ فيهما باللّامِ، وأمّا المعنويُّ: فاتِّفاقُهما في إثباتِ أمرٍ وتحقُّق وقوعه.

معنى (إنَّ) في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾:

(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيدِ، تجري مع قرينتها في جملةِ: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ في نسقٍ متناغم، وعطاءٍ متآزر، وكان ظاهر الإيجاز يقتضي الاقتصارَ على (إنّ) واحدةً للجملتين مُشرَكَتَين بالواو، فيُقال في غير القرآن الكريم: إنَّما توعدون لصادقٌ، والدّينَ لواقع، غير أنَّ تَكرار (إنّ) يَلْفِتُ النَّظَرَ إلى كونِ كلِّ خبرٍ من الخبرين مستقلًّا بالإفادَةِ، جديرًا بأن يُفرَد اهتمامًا بشأنِه واحتفاءً بقَدْره، فتعديدُ الأخبار على الاستقلالِ يَقْضي بتعديد جهاتِ الوعيد المُخيف للكفّار، وتعديدِ جهاتِ الوعد المبشِّر لأهل الدّين وسدنة حرَمِه السّاكن في القلوب.

من أمارات العنايةِ إفرادُ الوعيدِ المخيف للكفّار، والوعدِ المبشِّر للمؤمنين

دلالة (أل) في ﴿ٱلدِّينَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلدِّينَ﴾ هنا للعَهْدِ العلميِّ، والمرادُ به الجزاء والحسابُ في الآخرةِ، وفي التَّعبيرِ بالدّينِ لَمْحٌ للأصلِ الَّذي أُخِذَ مِنهُ، وهو المعنى اللُّغويُّ الَّذي هوَ المجازاة والمُحاسبَة، والمرادُ: "يوم يَدينُ اللّه العبادَ بأعمالهم"[1]، ومنه قولهم: "كما تدين تُدان" ومنه ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: 4][2].

قَرْنُ متعلّق الكافرين بمتعلّق المؤمنين منهجٌ قرآنيٌّ كريم يحقّق أغراضه

وفيه دلالةٌ على أنَّ يومَ الحساب قادمٌ، ومحاسبة كلِّ إنسان حتمٌ واقع لا مفرَّ منه، وأنَّ "الحسابَ والثَّوابَ والعقابَ لواجبٌ، واللّه تعالى مجازٍ عبادَه بأعمالِهم، وذلك يومَ القيامةِ، يومَ يُدانُ النّاسُ فيه بأعمالِهم[3].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 35.
(2) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 530.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 485.

كما أنَّ لفظَ ﴿ٱلدِّينَ﴾ قَد يوسَّعُ معناهُ إلى أن يشمَلَ الشَّرْعَ المنزَّلَ الَّذي يدينُ به النّاسُ لربِّ العالمينَ، كما أشار إلى هذا المَعنى البقاعيُّ بقوله: "ولمّا كان أجَلُ وعيدِهم وما يتعلَّق بالجزاء يوم القيامة، وكانوا يُنكرونه، قال: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾، أي: المجازاة لكلِّ أحد بما كسب يوم البعث، والشَّرع الَّذي أرسلتُ به هذا النَّبيَّ الكريم ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ لا بُدَّ منه، وإن أنكَرْتُم ذلك، فيَظْهَرُ دينُه على الدّين كلِّه، كما وعد بذلك، ثُمَّ نُقيم النّاس كلَّهم للحسابِ"[1].

معنى (اللّام) في ﴿لَوَٰقِعٌ﴾:

تقريبُ صِدقِ الوعدِ بالنَّصْرِ

(اللّام) في الخبر ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيدِ، وفيه تقريرُ وقوعِ المُداينة في الآخرَةِ، وذلك يتَّسِق مع أُخْتِها في الخبرِ السّابق ﴿لَصَادِقٌ﴾، فيتناغَمُ المعنيان.

ولاقتِضاء الخبر لها بقوَّة، جاءت متَّصلة به بعدَ (إنَّ) المؤكِّدة في أوَّل الجملة؛ لدفع تصوُّر استبعادِ النَّصر ومجازاة الظّالمين، وتقريب صِدق الوعد بالنَّصر وتثبيت الأمل في القلوب.

دلالة صوغِ (واقع) اسمَ فاعلٍ:

التَّعبيرُ بصيغة (فاعل) عنصرُ توكيدٍ بما فيها مِن ثباتِ الاسميَّة

معنى ﴿لَوَٰقِعٌ﴾، أي: حاصلٌ "في المستقبل، بقرينة جعلِه مرتَّبًا في الذِّكر على ما يوعدون، وإنَّما يكون حصولُ الموعودِ به في الزَّمن المستقبل"[2].

وفي صَوْغِ الخبر (واقعٌ) اسمَ فاعل تأكيدٌ لمضمونه من الوقوعِ والحصول، أي: لا بدَّ من وقوعِه وإن أنكرتُم ذلك، وهذا فيه تآزُرٌ مع المُؤكِّدات الأخرى؛ لتَرْسيخِ وُقوع المداينة، ومعاقبة الكافرين، ومجازاة كلِّ مَن بغى على الدّين وأهله، وناهضَ الرَّسول الكريم ﷺ، وعادى الحقَّ وأهله.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 448 - 449.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 340.

نكتةُ ضمِّ ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ إلى ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾:

حسابُ الكافرِ في الآخرة يُستوفَى، وعقابهُ يوَفَّى

ذكر الرّازي في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ أنَّ معناهُ: إنَّ الجزاء كائِنٌ حاصلٌ، وعلى هذا، فالإيعادُ بالحَشْرِ في الموعدِ هو الحساب، والجزاءُ هو العقاب، فكأنَّه تعالى بيَّن بقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ أنَّ الحسابَ يُستوفى، والعقابَ يوَفَّى[1]، فلمّا ذكر اللّه سُبحانَهُ صِدْقَ ما يوعَدونَهُ وتحقُّقَهُ؛ أتبعَهُ ببيانِ بعضِ ذلك، وهو وقوع المجازاة والحسابِ في الآخرةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الذَّرْو والنَّشْر:

الـذَّرْوُ مظهرٌ لِلقُدرة القاهرة، والنَّشر مظهر لِلرَّحمة والإحياء

الذَّرْوُ يدلُّ على التَّفريق العنيف المتناثر، ففيه حركةٌ سريعة مشتَّتة تُزيل، وتُبعثر، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾، ففي الآية دلالة على القُدرة الإلهيَّة المُبدِّدة لكلِّ متماسك؛ تمهيدًا للبعث والخَلْق والتَّقدير، وقد تضمَّن الفعلُ معانيَ الانسلاخ والتَّلاشي، والرّياح هنا تُشبِه أدواتِ القضاء والتَّهيئة.

أمّا النَّشر؛ فيدلُّ على البسط الهادئ المُنظَّم، وفيه توسعةٌ وتَجْلِيَة، كمَن ينشُر كتابًا، أو ينشر جسدًا للحياة، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣﴾ [المرسلات: 3]، فالرّيح تنشر السَّحاب أو المطر أو الرَّحمة، أي: تبسُطُها بانتظام.

ولهذا كان الذَّرْوُ مَظْهَرًا من مظاهر القُدْرَة القاهرة، أمّا النَّشر؛ فمَظْهَرٌ من مظاهر الرَّحمة والإحياء[2].

الوقوع والحصول:

أصل مادَّة (وقع) تدلُّ على السُّقوط والانحدار، ومن هذا الأصل

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 159.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ذرو/ نشر).

المادّيِّ انتقل المعنى إلى الدَّلالة المعنويَّة، فصار يُستخدم للتَّعبير عن حدوث الأمر أو وقوعه بصورة مفاجئة، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾ [الواقعة: 1]، ويدلُّ غالبًا على بداية الحدوث، ويحمِل في طيّاته دلالاتِ الانفجار والانحدارِ والمباغتة، وكأنَّ الأمرَ سقَط من عل بلا إنذارٍ، فيُثير بذلك الرَّهبة والفزَع.

فـي الـوقـوع معنى الانحدارِ والمُبـاغتَـة، وفي الحصولِ معنى الجَمعِ والتَّدريج

أمّا أصلُ مادَّة (حصل)؛ فتدلُّ على الجمع والتَّجميع، وهذا الفعل يُستخدم للتَّعبير عن تحقُّق أمرٍ بعد انتظار، أو نتيجة بعد سعيٍ أو سبب، كما يدلُّ على تمام الحدوث، فيحمل في طيّاته معنى التَّحصيل المُتدرِّج أو النَّتيجة المُتوقَّعة[1].

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (وقع/ حصل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والخمسون،
سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 57 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-650-27-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 57 : المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-650-27-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4331956 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"